فالإفصاح الكامل والتجسُّد لا يتمَّان إلا في نهاية التاريخ والزمان. اللغة نظام مغلق نسبياً، ولكنه ليس مغلقاً تماماً، ولذا فإنه يمكن تصحيح اللغة من خلال الحوار، ولعل ابن سودون المصري كان يعرف هذا تماماً حينما قرر أن يكتب شعراً يلتحم فيه الشكل بالمضمون تماماً، ويقول بيت الشعر ما يود أن يقوله ولا يزيد: وكأننا والماءُ يجري حولَنا.. قومٌ جلوسٌ حولَهم ماءُ. فهو بذلك يكون قد وصل للغة (نسميها «حرفية») يشير الدال فيها إلى المدلول ولا شيء آخر، وتصبح الصور المجازية في غاية الدقة من خلال تقويضها تماماً. ومثل هذا البيت لا يمكن لجاك دريدا تفكيكه مهما حاول لأنه قد قام بتفكيك نفسه! إن عملية الإفصاح تأخذ شكل قول نطرحه على الآخر وعلى الواقع، فيقبل البعض ويرفض البعض الآخر ويصحح ما نقول. ونحن نعلم صعوبة التعبير، ولذا نستخدم المجاز للتعبير عما هو مركب ومتجاوز.

ويمكن الحكم على اللغة من خلال الممارسة والإهابة بالواقع. ولنتصوَّر أن شخصاً يطلب منك أن تفتح النافذة، هنا لن تتأمل في علاقة الدال بالمدلول، وإنما ستنظر إلى النافذة ثم تقوم بفتحها. ولكن لنفترض أنك وجدتها مفتوحة، هنا ستدرك أن ثمة خللاً ما. ولنفترض أنه لا توجد نافذة أصلاً، فإن الخلل سيكون أعمق. ولنفترض أن هذا الشخص طلب منك أن تفتح النافذة غير الموجودة بعد أن يكون قد قيدك إلى الكرسي.. إذن لن يكون التأمل هنا في علاقة الدال بالمدلول، وإنما في مقصده الحقيقي. فاللغة ممارسة إنسانية. ولابد أن ذلك المكتوف الذي ألقاه صاحبه في الماء مع التشديد عليه بألا يبتل بالماء ـ لم يتأمل في علاقة الدال بالمدلول، وإنما شعر بالأسى لنفسه إذ وقع في يد مثل هذا المجنون!: ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له: إياكَ إياكَ أن تبتلَّ بالماء. وحينما نقول شيئاً ما، فنحن نعرف أن له معنى من خلال استجابة الآخرين وسلوكهم. وحينما نفسر شيئاً ما، فإن التفسير ليس كلاماً عن كلام (كما يدَّعي بعض دعاة ما بعد الحداثة)، وإنما يمكن القول بأن هذا تفسير أحسن من ذاك، بعد أن نقارن بين النص والواقع، وبعد أن نهيب بإنسانيتنا المشتركة.